العقل العربي وتحديات العصر

السلطة ـ المثقف والمجتمع

د. عثمان بن طالب

١) إننا لا نعتزم، في هذه المداخلة، تقديم دراسة أكاديمية أو بلورة نظرية عامة أو مشروع متكامل، لا نعتقد أن هذه المهمة هي من اختصاص فرد أو هي بالبساطة التي تجدي فيها الملاحظات العامة.

إن رصد المعطيات التي تميز أزمة الفكر العربي والتي تعبر عن أزمة المجتمعات العربية مهمة معقدة تتضارب فيها الاتجاهات حسب المنطلقات النظرية والخلفيات الإيديولوجية. ولكن مسؤولية المفكر العربي تقتضي أن يتجاوز هذه الخلفيات والأنماط النظرية الجاهزة لتشريح الواقع وقراءته في بعديه المكاني والزماني، لعلنا نظفر بقناعات جديدة تهيء الطريق للبديل المنشود وللمشرع الثقافي التحديثي الذي يصالحنا مع هويتنا وتراثنا ويمكننا من الإجابة عن أسئلة مصيرنا على كل الصُعُد.

إن هذه الملاحظات هي تعبير عن بعض هواجس الذات والوجود الجماعي والمصير المشترك... وهي سؤال في بعض المفاهيم الأساسية المطروحة على الفكر العربي المعاصر. وهل هناك أهم وأخطر من قضايا الحرية والعقلانية وعلاقة السلطة بالمثقف وشروط الإشكاليات نكرية الكبرى التي فرضتها علينا التحديات السياسية (الحرية والديمقراطية) والاقتصادية (فشل مشاريع التنمية) والاجتماعية (نمو الفكر السلفي والتوترات المصاحبة لصراع التيارات المتناقضة)...

٢) إن السؤال المركزي الذي ننطلق منه يتعلق بمسألة خطيرة يجمع المفكرون العرب على موقعها الاستراتيجي في سلم اهتماماتنا. إنها قضية تشكل العقل العربي المعاصر ومدى استجابته لتحديات العصر.

هذه المسألة لا يمكن اختزالها في مصطلح «العقلانية» وما نشأ حوله من جدل ونقاش ما زلنا نتخبط فيه دون نتيجة تذكر.

الأمر يتعلق بفهمنا لدور العقل العربي وقدرته على صياغة الحلول لما نعانيه من تخلف وردة وتبعية في عالم يتقدم بسرعة لا ترحم.

ولا بد في هذا المجال من نظرة تاريخية نحدد في إطارها جدلية نشأة المفاهيم وتفاعلها مع نسق التحولات الفكرية والاجتماعية حتى نصل الماضي بالحاضر ونفهم منطق التطور الذي لا نملك إلا الانصهار فيه أو الخروج عن فعل الحضارة الإنسانية.

١٠٢) إن العصر العربي الحديث وما يعيشه من صراع التيارات الفكرية والتحولات الاجتماعية يضعنا أمام مفارقة غريبة، بين بداية الحقبة الحضارية لثورة العقل الإنساني لعصر النهضة والتنوير وما آلت إليه من مكاسب: حقوق الإنسان، النمو الاقتصادي، الثورة العلمية، الديمقراطية.

ألم تكن هذه المكاسب التي تمثل اليوم مرتكزات الحداثة نتيجة مباشرة لثورة العقل؟

إن ما نشهده اليوم في عالمنا العربي من صراع بين دعاة الفكر الديني السلفي والمنتمين لنزعة معاداة العقل من ناحية وأصحاب المنهج العقلي ودعاة تحرير الإنسان العربي من سلطة الفكر الديني السلفي من ناحية أخرى ـ هذا الصراع يذكرنا بنقطة البداية أي بداية تشكل العقل الغربي ونشأة الحضارة الغربية.

٢٠٢) لم يكن التحول من جاهلية العصور الوسطى إلى العصر الحديث سهلاً، بل كان صراعاً طاحناً واتهامات بالكفر والزندقة وأحكاماً بالقتل والتعذيب. التحول استمر رغم محاولات قوى جاهلية العصور الوسطى إن توقف التاريخ ولكن التاريخ لم يتوقف وتأسس التمرد على الوصاية الفكرية والإرهاب والقمع السلطوي والتقديس الأعمى للكتب والأسفار القديمة الموروثة التي لم تعد تؤثر في نسق تطور الحياة العصرية ومتطلباتها. والإنسان يرى العالم يتحرك من حوله والواقع يتغير والحياة تتعقد فأصبح يبني فهمه الجديد للتاريخ من رصد الواقع واستقراء أحداثه في ضوء نور العقل والالتزام المنطقي والبحث المتواصل والصبر على جمع المعلومات.

لم يتوجه هذا الفكر الجديد الذي أسس حضارة الغرب، وهو يبني سلطة العقل ويفتح عصر السيادة لقيم التحرر والتقدم ويضع القاعدة الفلسفية لنمط المجتمع المدني، لم يتوجه إلى كتابات أرسطو أو القديس أغسطين أو غيرهما، وإن استوعب هذا كله، بل إلى الطبيعة والمجتمع والإنسان، فأخضع حصاده من المعلومات للعقل بمعنى أنه أخضعها لمبدأ الفحص والتمحيص والمراجعة والاختبار والتحقق، وأدرك الإنسان الأوروبي أن «الحقيقة أكبر من حصرها في دفتي كتاب»، وعرف أن «ثمة حقيقة أعمق وأشمل من المسيحية ذاتها»، يحتاج الإنسان إلى استكشافها وإلى بذل الجهد في تقصيها وهي نسبية دائماً.

«كما أدرك أن ما قدمه الأسلاف منذ الإغريق عظيم ومبدع ورائع، ولكن بالإمكان أن نحاكيهم روعة وإبداعاً. وأدرك ثالثاً أن النعيم ليس في السماء وحدها بل على الأرض أيضاً حيث يمكن التقدم باطراد في هذا السبيل بفضل العقل المستنير بعد أن ظل مقهوراً حتى أصابه الضمور بسبب خضوعه زمناً طويلاً لقمع المسيحية التقليدية وسلطان أهل التفسير».

٣٠٢) من هنا بدأ العصر الحديث، أو البحقبة التاريخية للحضارة الجديدة ولحركات الإصلاح والنهضة والتنوير. ومن هنا كان انتصار الإنسان على سطوة الإقطاع والكنيسة بداية لتطور العلم والثقافة ولتحرر الفكر والإبداع وللثورة ضد الاسترقاق الاقتصادي والاضطهاد السياسي والفكري.

فتحرر الإنسان من هذه القيود مكّن من انطلاقة العلوم فتغيرت صورة العالم في عقل الإنسان كما تغير منهجه في التعامل مع الطبيعة وتفسيرها. ومن هذا المنطلق تمكنت الشعوب الأوروبية، في مواجهة جدلية الأصالة والتحديث من الكشف عن صيغة جديدة في التوفيق بين النقل والعقل، أو بين التراث وحاجات العصر، فكان الولاء للتراث ولاءً إبداعياً يخضع التراث للنقد ويتجاوزه للخلق.

فبؤرة الصراع ومحور النهضة والتنوير كانا إذن في تأكيد قيمة الإنسان وفعاليته وإيجابيته في شؤون حياته وفي تحريره من قيد التبعية لرجال الكنيسة حيث أصبحت له الكلمة في رسم حياته على الارض واختيار علاقته بالمقدس خارج جدران السلطة الدينية والتقليد على النحو الذي شل فكره وقتل إرادته وقدراته الإبداعية وجعله أسيراً لعبارات موروثة تحمل هالة من القداسة.

للعقل إذن كانت السيادة الحضارية بعد فترة سبات وجاهلية امتدت في أوروبا من انهيار الإمبراطورية الرومانية حتى انبعاث حركات الإصلاح والنهضة والتنوير. هذه التيارات الفكرية وروافدها صاغت المزاج الفكري لإنسان العصر الحديث ومكنته من السيادة الحضارية على امتداد خمسة قرون.

٢ - ٤) من هذه الزاوية التاريخية، نتساءل عما يحدث في عالمنا العربي الذي يشهد تشكيكاً في قيمة العقل وهجوماً سلفياً على مقومات المكتسبات الحضارية الحديثة من منطلق الخصوصية والهوية الدينية ومعاداة العقلانية باعتبارها قيمة غربية.

إن مسألة علاقة الفكر العربي بالحداثة وبقيم النهضة تتحدد بالبحث في الخيط المتصل الباقي الذي يحدد موقعنا، نحن العرب، من حركية تشكيل العقل الحديث، ومن التطور التاريخي الذي يميز الأحداث والتناقضات التي صاغت هذا العقل.

هذا العقل المنتصر على الطبيعة وعلى البيئة. هذا العقل الذي أخضع مؤسسات السلطة ودساتيرها لقيم الحرية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية... هل هو عقل متوافق؟... إنه عقل متمرد دائم البحث عن قيمة الحقيقة والخير في كل متصورات الإنسان...

إن فشل أنماط التنمية التابعة وغياب الحرية السياسية في المجتمع العربي تفسر كلها على حساب أزمة العقل الحديث. هل هو انهيار قيم الحضارة أم أن أسباب الأزمة هي النظم الاجتماعية والاقتصادية التي أفرزت منطلقاً للتطور يحول الإنسان عبداً للآلة ولمن يملكها ويستثمرها ويرسم أهداف هذا الاستثمار؟.

إن انسداد الأفق أمام الإنسان العربي الذي يعاني في حياته اليومية، يفتح الباب واسعاً أمام تنامي الفكر السلفي. فعندما يفتقر الإنسان الى رؤية علمية أمام ما تفرزه الانظمة السياسية وقواعدها الاقتصادية من تناقض وشعور بالمعاناة ومن تمرد، عندها يرتد الى مبررات وتفسيرات غريبة عن الواقع يلتمس عندها الخلاص. فنصبح نعيش مفارقة خطيرة: كيف نوفق بين ما أنتجته في مجتمعاتنا النظم المعرفية والاقتصادية والسياسية المبنية على علوم الطبيعة والإنسان والمجتمع وبين حاجتنا الى السعادة والقيم المفقودة التي تدفع من يعاني الجهل أو القمع أو التخلف الى التطلع الى السماء وانتظار ما بشرت به الأديان؟

٣)إن نزعة معاداة العقل تبدو كانها أحد المظاهر المميزة لروح عصرنا. إلا أن الأمر في مجتمعنا العربي بمحاولة الوصول عقلياً لتقييم سليم للأدوار الفعلية للعقلانية أو اللاعقلانية في شؤوننا... إنه تنامي الفكر السلفي والهجوم على العقلانية من منطلقات دينية أو تراثية واهية.

لا ننسى أن الجذور الحقيقية لهذه النزعة قد أنجبت في الغرب مفكرين دافعوا عن النازية والفاشية... وليس بالغريب أن تقترن هذه النزعة في مجتمعنا بمعاداة ألديمقراطية وفكرة حقوق الإنسان واعتبارها أفكاراً مستوردة.

هذه النزعة التي تذهب الى التشكيك في نوع محدد من التفكير المجرد الاستدلالي في القضايا الكبرى لحياتنا وتعارض قدرة الفكر على الرقي بالإنسان إلى مرتبة السعادة، هي في نفس الوقت تعارض فلسفة التنوير التي تؤمن بالتعليم والرقي باداة الفكر الى إدراك الحقيقة، مما

جعل المفكر الإنجليزي جراهم ولاس يصرّح: «ربما جاء الفكر متأخراً في سلم التطور، وربما يكون ضعيفاً كقوة دافعة وهو أمر يدعو للأسى، ولكن بدون هدايته لن يجد إنسان أو تنظيم سبيلاً آمناً وسط التعقدات الواسعة المجهولة التي يشتمل عليها الكون كما تعلمنا أن نراها» (**الطبيعة البشرية في السياسة - لندن ١٩٠٥**).

والخطير في هذا السياق هو علاقة نزعة العداء للعقل بالأسلوب الديمقراطي وسلوكنا في الحياة ونظرتنا الى الكون. ولو نظرنا في تاريخ الغرب لرأينا أن نضج الديمقراطي خلال القرن الثامن عشر بلور مشروع تحول اجتماعي شامل وسريع من أجل سعادة تتحقق عن طريق تعليم كل الناس كيفية الإفادة من المخططين السياسيين القادرين على ابتكار وإدارة مؤسسات يحظى الناس كافة بالسعادة في ظلها.

بينما تؤكد نزعة معاداة العقل مقابل هذه الأفكار الديمقراطية «إيمانها بأن البشر ليسوا في الواقع قادرين على الاهتداء بالعقل، حتى مع توفر أفضل نظام تعليمي. وإن الدوافع والعادات والأفعال المنعكسة الشرطية هي التي تحكمهم في الغالب الأهم ولا سبيل الى تغييرها سريعاً» (تشكيل العقل الحديث. ص. ٣٥٨).

فالقطب المعادي للديمقراطة هو التعبير السياسي لنزعة معاداة العقل التي يمثلها اليوم في مجتمعنا العربي دعاة الفكر السلفي، كما مثلها في الغرب دعاة الإصلاح الأخلاقي.

إن رهان الديمقراطية في عصرنا الحالي لا يمكن فصله عن رهان العلم لأنه من الخطإ تصور تنمية سياسية وترسيخ العقلية الديمقراطية في ظل التبعية ألاقتصادية والتخلف الاجتماعي ورهان العلم هو بدوره مناقض تماماً لنزعة معاداة العقل.

إن استغراق الإنسان في عالم آخر، والتفاني في منطق باطني روحي يجعل العلم مستحيلاً. فالعلم لا يحتاج فقط الى مجرد الاهتمام بالامور المادية فحسب وإنما يستلزم أداة فكرية تبتكر وتدبر وتنظم المعلومات في ذلك النسق الذي نسميه المعرفة العلمية. ويستلزم العلم قبل كلّ هذا تمرساً طويلاً على استعمال العقل. ليصبح أساساً للقيم التي ننحت في ضوءها مصيرنا ونمط حياتنا.

٤) ما هي الشروط، في نظرنا، لبناء، عقلية ثقافية جديدة تؤهلنا لمواجهة التحديات الحضارية الكبرى التي تواجهنا في عصر التغييرات العميقة للإنسانية وهي تطل على القرون الواحد والعشرين وتشهد تعديل الموازين العالمية في اتجاه ترسيخ مبادىء الديمقراطية والحرية؟

إنه سؤال كبير تشترك كل أطراف المجتمع العربي في تحديد الإجابات عليه. ولكننا نؤكد هنا على مسؤولية السلطة والمثقف في دفع عجلة التاريخ وفتح السبيل أمام الجماهير العربية لتقرر مصيرها وتساهم بفعالية في بناء هذا المصير.

٤-١) مهمة السلطة في مجتمعاتنا العربية أن تقتنع بحتمية تحرر الإنسان العربي ليخرج من الخوف والامتثالية التي تشل طاقاته الفاعلة، وضرورة كسر قيود الفكر الحر ليغوص في المجتمع بدون ضغطٍ أواحتواء. فمن هو الذي يرصد المستقبل في سيرورة وديناميكية التحولات الحضارية؟ إنه المثقف الذي يجب على السلطة أن تراهن عليه حتى وإن أحرجها آنياً فإن المجتمع هو الكاسب في نهاية الأمر.

إن وجود مجالات فكرية غير مرتبطة بالقيم السائدة والتصورات المهيمنة اجتماعياً وسياسياً لا يهدد بالضرورة استقرار المجتمع واستمرارية السلطة السياسية، بل إنه ظاهرة صحية ومطلوبة لترسيخ القيم الديمقراطية ومناخ الابتكار الحر وشرط للإبتعاد عن مصادرة الأفكار والآراء وخنق التعبير المخالف. إنه مقياس هام لمصداقية السلطة وعليها أن تخضع له عن اقتناع ودون حسابات ديماغوجية إذا هي آمنت بحتمية الدخول في عصر التقدم الحقيقي.

٤-٢) إن قضية العقل والحرية مرتبطة بقضية «المصير» كما بلورها ما يسمى «بالتيار الوطني العربي الإسلامي الجديد». (١) بمعنى أن المثقف العربي لا بد أن يأخذ موقفاً نقدياً من كثير من المسلمات ويعبر عن جملة من الروافض ومنها بالأساس نقد المركزية الحضارية الاوروبية، رفض النظرة السلفية، عدم تهميش الضمير الشعبي العميق النداء بتعصير المؤسسات والتصريح بفكرة التأخر مع ادماجها في جدلية تاريخية(٢).

فتجديد الفكر العربي هو شرط رئيسي لتطور العرب، وهذا التجديد يجب أن ينطلق من نقد المطلقات (اللغة - الدين - الثقافة - التراث -) ونقد المؤسسات الراهنة وكسب وعي تاريخي يؤمن بالتجاوز ويتفاءل بالمستقبل.

مهمة التجديد هذه تطرح علينا تمثل الوعي التاريخي وعدم الخوف من طرح العامل الإيديولوجي لأن استبطان أي مشروع ثقافي ومجتمعي يتطلب نقد التفكير الغربي المهيمن ورفض كابوس التراث في آن واحد.

إن إمكانيات التحديث موجودة في منطق وجودنا التاريخي رغم أننا نعيش انفصاماً في تمثلنا للماضي ولا نملك صورة يقينية وشاملة على حاضرنا ومستقبلنا. هذه الإمكانية مشروطة أساسًا بعقلنة الحياة العربية على كل الصُعُد، أي بثورة ثقافية وحضارية تراجع تصوراتنا السائدة وتحدد الخطوط الكبرى للبديل خارج الأطر الأيديولوجية البورجوازية الصغيرة المسيطرة في مؤسسات السلطة وقد برهنت على عجزها عن بلورة تصور شامل للنهوض بالإنسان العربي.

إن وعي الكاتب العربي يعطيه مسؤولية جسيمة للاضطلاع بدور طلائعي في هذا التجديد. فتخلف المجتمع يضاعف هذه المسؤولية ولا يترك لنا الخيار لنقد البنى الأساسية التي تنتج هذا التخلف وتغذيه: إنها المطلقات الثقافية والمؤسسات الخانقة للحرية والفكر وهي الازدواجية الثقافية والأنماط الاقتصادية التابعة.

إن تحول هذا الوعي المتقدم إلى فعل ثقافي عميق الجذور يتطلب العمل على إدماج العقلانية في كل مستويات الحياة الاجتماعية، مع مراعاة خصوصياتنا النوعية المتأصلة في صميم تصوراتنا ووجداننا كما يقتضي تجاوز عقدة ارتباطات المثقف بالسلطة وبالتالي القطيعة مع منطق تقديم التبريرات الفكرية للاختيارات السياسية، إذا كانت هذه الاختيارات متخلّفة ومعطلة لرقي الإنسان العربي.

تونس

هوامش

١) أعمال هشام جعيط وأنور عبدالملك وعبد الله العروي:
(١) هشام جعيط جريدة الرأي. تونس ١١/٥/١٩٧٨.
(٢) هشام جعيط جريدة الرأي. تونس ١١/٥/١٩٧٨.

المراجع:

- **التجارب الديمقراطية في الوطن العربي**.
- **أعمال منتدى الفكر والحوار** - مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية - سلسلة الدراسات الأدبية - ٣ - الجامعة التونسية - تونس ٤ - ٩ ديسمبر ١٩٧٨.
- **العرب أمام مصيرهم**: مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الدراسات الاجتماعية - ٦ - .
- هشام جعيط: **أوروبا والإسلام**.
- هشام جعيط: حديث مطوّل بجريدة الرأي، تونس ١١/٥/١٩٧٨.
- هشام جعيط: **الشخصية العربية ومصيرها**.
- عبد الله العروي: **الايديولوجية العربية المعاصرة**.
- عبد الله العروي: **أزمة المثقفين العرب**.
- عبد الله العروي: **العرب والفكر التاريخي**.
- أنور عبد الملك: **الفكر السياسي العربي المعاصر**.
- أنور عبد الملك: **الفكر العربي في حركة النهضة**.
- رضا الزواري: «**المثقف على الهامش بالضرورة**» - منبر الفكر التقدمي - الطريق الجديد ٢٩/٦/١٩٨٨.
- جراهم ولاس: **الطبيعة البشرية في السياسة** - لندن ١٩٩٠.